وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الرابعة

مراحل الدعوة الإسلامية

أيها الإخوة المسلمون عباد الله، على درب السيرة نسير، نتحسس العبر والعظات التي تنمي الإيمان في قلوبنا، وتزكي الخلق في نفوسنا، وتلهب الكفاح في أعمالنا، وتغرينا باتباع ديننا، فالناس أخلاط متنافرون لا تستقيم بهم السبل يومًا إلا شردت أيامًا، ولا يتبعون الحق حينا إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحيانًا.

إن هذا الضلال والبعد عن نهج رسولنا ﷺ أصاب حياتنا عباد الله، وكان التبدل مروعًا رد نهارها ليلًا وسلامها ويلًا.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا اتباع هديه الكريم

وقد تكلمنا في الخطبة الماضية عن بعثته ﷺ بعد أن تكلمنا عن نشأته، وصفاته، وبيئته، وحفظ الله سبحانه وتعالى له ﷺ.

وفي هذه الخطبة إذا شاء المولى جل وعلا نأخذ زهرة عطرة من باقة نضرة في روضة ندية من سيرة خير البرية محمد ﷺ.

فها هو رسولنا ﷺ وقد تقلصت ظلال الحيرة، وثبتت أعلام الحقيقة، وعلم محمد ﷺ علم اليقين أنه أضحى نبيًا، فلننظر عباد الله ماذا يفعل هذا النبي العظيم ﷺ الذي رباه الله فصار قرآنًا يمشي على الأرض ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

فهنا تتجلى تلك الشخصية التي عرفناها، فقد جعل رسولنا ﷺ الدعوة لنشر دين الله سبحانه وتعالى على **أربع مراحل:**

المرحلة الأولى: الدعوة سرًا واستمرت ثلاث سنوات، **المرحلة الثانية** : الدعوة جهرًا وباللسان فقط واستمرت إلى الهجرة، **المرحلة الثالثة:** الدعوة جهرًا مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية، **المرحلة الرابعة:** الدعوة جهرًا مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة.

وقد بُعِث ﷺ وأوحى إليه وهو في سن الأربعين، ومكث ثلاثة عشر عامًا في مكة ثم هاجر، وفي هذه المدة أنهى مرحلتين من مراحل الدعوة.

المرحلة الأولى: الدعوة سرًا

فقد اجتهد النبي ﷺ في هذه الفترة في دعوة من يغلب على ظنه أنه سيدخل في هذا الدين وسوف يكتم أمره، وهذا من باب النظر المصلحي للدعوة، فدعا النبي ﷺ زوجته خديجة رضي الله عنها وكانت أول من أسلم من النساء، ودعا صديقه الذي هو موضع سره أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وببركة إسلامه رضي الله عنه ودعوته دخلت ثلة مباركة في الإسلام على يديه؛ منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام ابن عمة النبي ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص خال النبي ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين، وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة رضي الله عنه، وتوالى إسلام الأفاضل من قريش، ولم تحدث في هذه الفترة مواجهة ولا صدام

بين قوى الكفر وهذا المجتمع الإسلامي الناشئ، بل في هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوّة والتعاون وتبليغ الرسالة وانتهت هذه المرحلة من عمر السيرة النبوية، ولكن لم تنته من عمر الأمة الإسلامية.

ثم انتقل إلى المرحلة الثانية وهي: **الجهر بالدعوة**

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:(**لَمَّا نَزَلَتْ:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ، أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا، فَنَزَلَتْ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾**)[1]، أي أن رسول الله ﷺ أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب.

شهدت الأنام بفضله حتى العدا ... والحق ما شهدت به الأعداء

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٧٧٠).

قال ﷺ: (**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**)[1]، فأخذ رسول الله ﷺ يُنذِر عشيرته الأقربين ولم يزل هذا الصوت يرتج دَوِيُّه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى ﴿ **فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴿٩٤﴾ ﴾[الحجر: ٩٤]، فقام رسول الله ﷺ يعكر[2] على خرافات الشرك، ويذكر حقائق الأصنام، ويضرب بعجزها الأمثال، فانفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار حين سمعت صوتًا يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت، وبرقت، وزلزلت الجو الهادئ.

وفي هذه الفترة أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أسلم رضي الله عنه في المرحلة الثانية من الدعوة في مرحلة الجهر بالدعوة.

وكان إسلامه رضي الله عنه ببركة دعوة النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ**)[3].

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٧٧١) ومسلم رحمه الله في صحيحه (٢٠٦).

[2] يعكر: يقلل من شأنها.

[3] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٣٦٨١)، وقال: حسن صحيح غريب، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٣٦٨١).

وفي هذه الفترة أيضا أسلم حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فدخلت الدعوة في طور جديد، وصدع الرسول ﷺ بما يؤمر، ففزع المشركون بتزايد عدد المسلمين، عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب: لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم قص عليه قصة إسلامه، وقال في آخره: قلت: -أي حين أسلمت-: **«يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتْنَا وَإِنْ حَيِينَا؟ قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتُّمْ وَإِنْ حَيِيتُمْ، قَالَ: فَقُلْتُ: فَفِيمَ الِاخْتِفَاءُ؟ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَتَخْرُجَنَّ، فَأَخْرَجْنَاهُ فِي صَفَّيْنِ، حَمْزَةُ فِي أَحَدِهِمَا، وَأَنَا فِي الْآخَرِ، لَهُ كَدِيدٌ كَكَدِيدِ الطَّحِينِ، حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، قَالَ: فَنَظَرَتْ إِلَيَّ قُرَيْشٌ وَإِلَى حَمْزَةَ، فَأَصَابَتْهُمْ كَآبَةٌ لَمْ يُصِبْهُمْ مِثْلَهَا، فَسَمَّانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ الْفَارُوقَ، وَفَرَّقَ اللهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»**[1]، وكان ابن مسعود ﷺ يقول : **«وَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ظَاهِرِينَ حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ»**[2]، وعن صهيب بن سنان الرومي ﷺ قال: **«لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ»**[3]، وعن عبد الله بن مسعود قال : **«مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»**[4].

عباد الله، في هاتين المرحلتين نلاحظ أمورًا لابد من أن نعرفها، ونتعلم منها، ونسير بها على بصيرة، منها:

---

[1] أخرجه الحافظ أبو نعيم رحمه الله في حلية الأولياء (١/٤٠)، وقال الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٦٥٣١): هذا إسناده ضعيف جدا.

[2] أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك (٤٤٨٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وقال الذهبي رحمه الله: صحيح.

[3] تاريخ المدينة (٢/٦٦٠)، للحافظ ابن شبة.

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٨٦٣).

- أن المسلمين إذا كانوا في قلة عدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم؛ فينبغي أن نقدم هنا مصلحة حفظ النفس على مصلحة حفظ الدين؛ لأن مصلحة حفظ الدين منتفية الوقوع لما في ذلك من فوات النفس (قتل المسلمين)، وشفاء صدور الكفار، وإرغام أهل الإسلام، ولكن مع ذلك عباد الله لا بد وأن يسعى هؤلاء الضعفاء من المسلمين بالأخذ بالأسباب لإجماع قوتهم من تقوى، وقرب من الله، ونصر الله في أحكامه وشريعته، والعمل الدؤوب حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام أعدائهم كما فعل رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم.
- الأمر الآخر عباد الله وهو المستفاد من هذه فترة الدعوة السرية أن كثيرًا من الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ كانوا من الضعفاء والموالي؛ لأن الفقراء والمستضعفين لا يصعب عليهم أن يكونوا تبعا لغيرهم، ولكن أهل الجاه والسلطان يمنعهم الكبر وحب الجاه والرفعة، كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال في قوم نوح عليه السلام ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧]، وفي قصة

صالح عليه السلام ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٥]، فالمال والسلطان قد يكونان حائلًا بين الإنسان والحقيقة، نسأل الله خير ما في المال ونعوذ به من شره.

● أمر آخر، قد يظن بعض الفئات (دينية كانت أو حزبية) أو أي مجموعة من الأشخاص أن الدعوة إلى الله ونصر دينه تكون سرية كما فعل الرسول ﷺ، ولكن لا دليل لهم على ذلك؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه كان لا يُسمح لهم أن يقولوا لا إله إلا الله، ولا أن يُؤَذِّنوا، ولا أن يُصَلوا، فلما قويت شوكتهم أُمِروا بالجهر بالدعوة، أما في مجتمعاتنا الإسلامية فنحن نصلي، ونُؤَذِّن، والناس مسلمون، فالأصل في الدعوة هو الجهر، والوضوح، والبيان، ومن ثَمَّ فإن وجدتَ أي دعوة إلى الله تقوم على السرية والخفاء؛ فاعلم أنها خاطئة، إذ لا مبرر لهم في ذلك وهم يعيشون في ديار الإسلام.

● أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدعوة أقاربه قائلا: فأول الخير ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فأول من يناله الخير الذي تفعله هم رحمك وأقاربك، فكل خير تريد أن تقوم به فابدأ فيه برحمك، فهم أهم أناس تبدأ الخير بهم؛ لأن الشرع الحنيف وصى بذلك، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [محمد: ٢٢ – ٢٣]، فمن يقطع رحمه ولا يصلها بالبر والخير؛ قال عنه

الله سبحانه وتعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾، وقال النبي ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ، قَالَ ابْنُ أَبِي عُمَرَ: قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ"[1]، وقال النبي ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها: "يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"[2]، فما في الدنيا يمكنك أن تأخذيه، أما الآخرة؛ فلا تزر وازرة وزر أخرى، فلا تظن أن بنسبك الرفيع، أو بمالك الوفير، أو بعملك الصالح القديم يكون لك شأن عند الله عز وجل، فلا شأن لك عند الله إلا بخواتيم الأعمال، فلا تركن إلى عمل سابق، بل اركن إلى الله وإلى خواتيم الأعمال.

- بدأت الدعوة منذ أن علم النبي ﷺ أنه أضحى نبيا، واستمرت إلى موته، وستستمر إلى يوم القيامة، فالدعوة أمر عظيم، ويأمر النبي ﷺ أمته بالدعوة إلى الله قائلا: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً"[3]، **بَلِّغُوا**: تكليف، **عَنِّي**: تشريف، **وَلَوْ آيَةً**: تخفيف، فنبلغ عن النبي ﷺ أي حكم، بلغوا عن النبي ﷺ أي شيء، فالأمة الإسلامية هي المعنية بهذه الدعوة، فلا ترى المنكر أمامك وتتركه دون إنكار، وتقول: فلان سيغيره، بل كل منا عليه أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر مصداقا لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فخيرية الأمة مقترنة

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٩٨٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٥٦)، واللفظ له.

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٧٥٣)، واللفظ له، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٠٦).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٤٦١).

بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، ويقول النبي ﷺ: "**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**"[1]، فأنت أخي المسلم إذا وجدت منكرا؛ فلا بد أن تغيره، إما بيدك؛ وهذا لا يكون إلا لأولي الأمر سواء في الدولة أو في البيت، فأولوا الأمر في البلد هم المسؤلون عن تغيير المنكر من شرطة وغيرها، أما تغيير المنكر في بيتك فهو من اختصاصك أنت أخي المسلم، ومن لم يستطع أن يغير بيده؛ فليغير بلسانه بأن يقول قولا يأمر به بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فإن لم يستطع الإنكار باللسان؛ فليغير بالقلب، ولهذا فإن مالك بن دينار قال: "**إِنَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ بِقَرْيَةٍ أَنْ تُعَذَّبَ فَضَجَّتِ الْمَلَائِكَةُ، قَالَتْ: إِنَّ فِيهِمْ عَبْدَكَ فُلَانًا، قَالَ: أَسْمِعُونِي ضَجِيجَهُ، فَإِنَّ وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ غَضَبًا لِمَحَارِمِي**"[2]، فلم ينه عن المنكر حتى بقلبه، فالمرء قد لا يستطيع أن يفعل شيئا، فعلى الأقل أن يتمعر وجهه أو يجد ألما في قلبه، وإلا كيف تحب الله ﷻ وتحب رسوله ﷺ؟!! وأين غيرتك على كتاب ربك وعلى سنة نبيك ﷺ إن لم تغير بيدك، أو بلسانك، أو حتى بقلبك؟!!

اللهم صل وسلم وزد وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

اللهم صل على نبينا كلما ارتوت الأرض بالماء

وصل عليه بعدد حبات الرمال في البيداء

---

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٤٩).

[2] شعب الإيمان (٧١٨٨)، للإمام البيهقي رحمه الله.

وصل عليه كلما ذهب عبد أو جاء

اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه أولي الكرم والحياء